

تدوين الحروب في الشعر الجاهلي

• د. عبد الله محمود حسين

□ تمهيد :

عرف العرب الكتابة منذ أقدم العصور ، وما تزال الآثار العربية القديمة تقدم لنا كل يوم العديد من الأدلة والبراهين على الكتابة العربية واستخدامها ، كما عرفت العديد من الشعوب ، والتي يعود فيها الفضل الأول والكبير لهم ، لاسدائهم تلك المنحة العظيمة للإنسانية والمجتمعات البشرية من خلال الأبجدية التي أوجدها أسلافنا السابقون ، ومنها أخذت تتطور عبر العصور ، حتى وصلت الى الأبجدية الحالية التي نستخدمها في أيامنا هذه •

كذلك عرف العرب الحرب ، وخاضوا غمارها وبرعوا فيها ، ونقلت لنا روايات كثيرة عنها عبر الشعر والخطابة لفترة ما قبل الاسلام اضافة لبعض المنحوتات التي وجدت في المقابر والآثار القديمة ، وعبر المدونات الدينية والتاريخية والشعر وغيرها من فنون الكتابة التي عرفها العرب في الفترة التالية لظهور وانتشار الاسلام •

□ الفترة الجاهلية :

انتشرت القبائل العربية فوق رقعة من الأرض لها خصائص معينة جغرافياً وبشرياً وعمرانياً ، وكل واحدة من تلك أثرت بشتى الصور والأشكال مع غيرها في السياق الحياتي لعملية الوجود العربي في جزيرة العرب أولاً وغيرها من الأصقاع الأخرى ، ومن ثم فرضت من خلال طابعها الجغرافي الاقتصادي ظروفًا قاسية على ساكنيها أو مرتاديها ، وتطلبت شروطاً معينة للتأقلم مع هذه البيئة الأصلية أو الجديدة على تلك القبائل ، التي هاجر

الكثيرون منها وانساحوا فوق العديد من البقاع لتأمين أبسط المتطلبات الحياتية الضرورية لهم ولأنعامهم ، والتي كان يقف على رأسها الماء والكلاً .

أضحت تلك المناطق الوفيرة الماء ومن ثم الكلاً موئلاً يقصده كل طالب لهما ، ونظراً لقلة أعدادها قياساً الى تلك المساحات الشاسعة والمترامية الأطراف الممتدة من أقصى حدود اليمن الى خليج عُمان ، ومن أعالي الجزيرة السورية حتى أواسط الصحراء الافريقية ، فقد غدت هذه الواحات المخضوضرة في وسط ذلك الامتداد الصحراوي الكبير مطمناً لشيوخ القبائل ، كل يروم الحصول على واحدة منها أو قسم منها ، وعلى الأقل المشاركة في الاستفادة من خيراتها لصالح قبيلته ، ومن هنا ازدادت عوامل التنافس والتي كانت في الكثير الأعم تنقلب الى قتال داهم ، تطول فصوله بمأساوية لا حدود لها . وهكذا كانت تلك واحدة من بواعث ودواعي نشوب الحروب والقتال بين القبائل العربية أنى كانت ديارهم ومواطنهم سعياً وراء تحقيق أكبر قدر من الموارد المعاشية لهم ولعشائريهم وذرائعها وأنعامها . كما أسهمت هذه البؤر الحياتية بدور حياتي كبير على صعيد القبائل العربية، كذلك فقد نجم عن هذا التجميع قيام تجمعات حضارية رائدة قامت حول هذه الغدران المائية أو الدلتات النهرية التي وفرت لمرتاديها أبسط متطلبات الحياة ، فقامت هنا وهناك العديد من كبريات الحضارات والدول التي عرفتها الأمم عبر تاريخ البشرية الطويل، فعلى أراضي ما بين النهرين قامت الامبراطوريات والحضارات الكلدانية والبابلية والآشورية ، وعلى دلتا النيل قامت الامبراطورية والحضارة الفرعونية ، وفي الحيرة أقام المناذرة دولتهم ، وتدمر عروس الصحراء عرفت واحدة من كبريات الدول، وذات الشيء في منطقة البتراء حيث أسس الأنباط دولة وحضارة ، كما سبق أن ظهرت في دمشق وحماة وحمص وحلب وصيدا وصور وجبيل والقدس واللاذقية وماري وايبلا وقرطاج وغيرها العديد من الممالك والامبراطوريات التي تركت بصمات واضحة وهامة على صفحات التاريخ البشري والحضارة الانسانية وما زالت الكثير من شواهداها المادية العمرانية منها والمكتوبة تشير اليها والى عراققتها ودورها في المسيرة الانسانية واسهاماتها الكبيرة في هذا الميدان .

□ تدوين الحرب العربية :

كما سبق الاشارة اليه أعلاه ، فان قسماً كبيراً من الحروب القبلية التي دارت رحاها بين العرب أنفسهم أو مجاوريهم ، كان الباعث اليها على وجه العموم هو العامل الاقتصادي، من أجل الماء والطعام ، لذا كان طبيعياً أن يتمرس أبناء القبائل في بيئاتهم المختلفة والشديدة القسوة ، على تحمل الظروف والتأقلم معها ، وفي ذات الوقت الاستعداد للذود عن حمى الظمينة ورد غارات الطامعين في مواردها الحياتية ، لهذا ، كانت القبائل تعمل على تنشئة أولادها ومنذ سنوات مبكرة على ركوب الخيل واستخدام الأسلحة الفردية المعروفة واتقان استعمالها ، وكان يشرف على تلك التدريبات بعض من فرسان القبيلة المدودين ، أو كان الآباء يقومون بتعليم أولادهم فنون القتال وأساليب الطعن والطراد

في ميادين التدريب المجاورة لحمى قبائلهم . تبارت القبائل في الاشادة بمآثر رجالها الشجعان من خلال وسائل الاعلام المتوفرة وقتذاك ، والتي كان الشعراء والخطباء هم أبرز أدواتها ، فمن طريقهم كانت تنقل أخبار القبائل عبر الفيافي والقفار ، أو من خلال الأسواق التي كانت تعقد في أيام معلومة كسوق عكاظ وغيره حيث يتولى الشعراء والخطباء نقل تلك الأخبار عبر قصائد أو خطب تقال في هذه المناسبة أو تشيد بمناقب أحد رجالات القبيلة وبطولاته والأعمال التي قام بها في لقاء مع عدو ودوره في الذود عن حمى القبيلة ورد غارات المعتدين ، ويُمرّج الشعراء أو الخطباء على الحديث عن وسائل القتال المستخدمة سواء كانت سيوفاً أم رمحاً ونبالاً وغيرها، وكذلك بالحديث عن الخيول وصفاتها وأسمائها وغير ذلك . ومن هنا ، ولأهمية الشعراء وقتذاك ، كانت القبائل تفخر وتتباهى عندما يبرز من بين أبنائها شاعر كبير يلقي شعره الذيوع والانتشار ، حيث يمثل في حينه واحدة من أقوى وسائل الاعلام والنشر السريعة الانتشار والدائمة الشيوع والاستعمال . بل وأكثر من ذلك فكلما زاد عدد الشعراء في قبيلة من القبائل ازدادت تيتها وتفاخراً بهم بين أقرانها من القبائل الأخرى . لذا فقد كان الشعر والخطابة ، هما الوعاءان اللذان بهما ومن خلالهما وصلتنا الكثير من الأخبار والمعلومات عن أهم المعارك ونتائجها التي جرت في العصر الجاهلي وأماكن تلك المعارك وأبرز أبطالها ، وفي ذات الوقت الحديث عن الأسلحة المستخدمة وأنواعها وأسمائها . لكن على وجه العموم، كان الشعر الوعاء الأكثر شيوعاً والذي ضم في قصائده تلك الأخبار ، ونقلتنا إلينا كابراً عن كابر ، وما زلنا نردها حتى أيامنا هذه بل وحتى يرث الله الأرض ومن عليها . من هنا ، لم تكن مقولة : الشعر ديوان العرب . مقولة هامشية وإنما هي حقيقة تدل على أهمية وضخامة المعلومات التي وصلت إلينا عبر القرون بالشعر ومن خلاله عن حياة وأيام وأخبار تلك القبائل والدول ، بما يوفر قسطاً كبيراً من الدقة ، وتغطية شبه شاملة لمعظم المعارك التي كانت تدور فيما بين تلك القبائل أو الدول .

فالشعر هو المصدر الأول والرئيسي الذي حفظ به العرب الكثير من المعلومات المخترنة ضمن قصائده . ونقلتنا إلينا خلال هذه القرون الطويلة ، هذا ولن ندخل هنا في مجالات سبق أن ولجها الكثير من الدارسين ذوي الاختصاص بالأدب الجاهلي ، وناقشوا مدى أصالته وصدقه وغير ذلك من الأمور التي هي خارج نطاق بحثنا هذا . والمهم بالنسبة لنا ، أن الشعر الجاهلي موجود ولا يمكن أن يأتي من عدم ، وعالج العديد من الموضوعات الحياتية التي كان يألّفها الانسان العربي ، فتطرق الشعراء لوصف مظاهر الطبيعة : المطر والنخيل والسحب ، ومشاهد من فصول الشتاء ، والغدران ومواضع المياه والسيول والنحل والعسل وبعض الصخور الغريبة والطيور ووصف بعض الحيوانات ، فقد اشتهر البعض منهم بوصف الخيل مثل النابغة الجعدي، وأوس بن حجر بوصف الحُمُر ، وعلقمة بن عبدة بوصف النعامة وغيرهم ، وغنوا بالمديح واستعاروا لذلك تشابيه مألوفة في حياتهم ، وتفننوا في الغزل والهجاء والحكمة ، ولم يَقلْ أثر الشاعر في السلم والحرب عن أثر الفارس، الشاعر يدافع عن قومه بلسانه يهاجم خصومهم ويهجو سادتهم ، ويحث المحاربين على

الاستماتة في القتال ، ويبعث فيهم الشهامة والنخوة للاقدام على الموت حتى النصر ، في حين كان الفارس يدافع عن قومه بسيفه ، وكلاهما ذابَّ عنهم محارب في النتيجة ، بل قد يقدم الشاعر على الفارس ، لما يتركه الشعر من أثر دائم في نفوس العرب ، يبقى محفوظاً في الذاكرة ومتناقلاً على الألسنة ، يرويهِ الخلف عن السلف بينما يذهب أثر السيف بذهاب فعله في المعركة . والشعر هو الذي حفظ لنا تلك المعارك والقصص والأخبار حلوها ومرها التي ما تزال تتردد أحداثها وحوادثها بين أسماعنا ونشنف آذاننا بسماع أخبارها وترداد قصصها كل حين ، اضافة لوجود عدد كبير من الشعراء الفرسان .

□ العرب والشعر :

أفاد الشعر الجاهلي المؤرخين والباحثين في تاريخ الفترة الجاهلية ، فائدة جلى لا تقدر بثمن .

وربما زادت فائدة هذا الشعر من الوجهة التاريخية على فائدته من الوجهة الأدبية ، لأنه حوى أموراً مهمة من أحداث العرب الجاهليين ، لم يكن في وسعنا الحصول عليها لولا هذا الشعر . وكانت القبائل العربية تعتز وتباهى كلما نبه فيها شاعر واشتهر وذاع صيته ، لأنها بذلك تضمن المنافع عنها والكفيل بالتصدي لهجمات المعتدين وأقوال المفرضين .

زخرت دواوين الشعراء الجاهليين بالعديد من القصائد أو الأبيات الشعرية التي تتحدث عن الحرب وويلاتها وآثارها وأخطارها ، والتي تدل على خبرة عظيمة ومعرفة متعمقة بالحرب وفنونها وأشكالها التي كانت تجري في تلك الأيام ، يقدم لنا الشعراء خبراتهم وتجاربهم من خلال الدروس المستفادة من تلك الحروب ، اذ تشكل تلك القصائد نواقيس خطر تدق لمن يملك قليلاً من عقل ليتجنب خوض الحروب ويتحاشى ويلاتها ومخاطرها التي ذاقوا بعضاً منها أو تعرفوا على البعض الآخر خلال حياتهم الطويلة . .

من تلك النماذج والشواهد نسوق بعضاً من هاتيك الأبيات الشعرية التي تطرقت للحرب وتحدثت عنها وحذرت من مغبة اشمال فتيلها تناولها الكثير من الشعراء في أشعارهم ، ولعل زهير بن أبي سلمى يعد واحداً من أبرز هؤلاء الذين ضرستهم التجارب والأعوام الطوال التي عاشها حيث نيف على الثمانين عاماً ، فحفلت أيامه وأعوامه بالعديد من الخبرات والأخبار ، نقل إلينا بعضاً منها عبر شعره الرائع ، المليء بالحكم التي ما زالت وستبقى صالحة لكل عصر وأوان .

يقول زهير في حديثه عن الحرب عبر معلقته الشهيرة :

وما هو عنها بالعديث المرجم	وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وتضر اذا ضريتموها فتضرم	متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتلقح كشافاً ثم تنتج فتنتيم	فتعرككم عرك الرعي بثفالها

ان حديثه عن الحرب ليس بالحديث الغفل أو الجديد ، وانما هو حديث عن أمر معاش ، يعرفه الجميع ، وخبروا نتائجهم وذاقوا مرارته وويلاته ، فليس الحديث اذن رجماً بالغيب ، فهو ينقل في آله التصويرية الدقيقة الرائعة مشهداً وصورة أكثر حيوية عندما يرسم صورة الحرب الدميمة ، وآلية نشوبها ومن ثم تأجج سعيها عندما تحتدم في ساحات القتال المعارك الطاحنة الضروس التي لا تبقي ولا تذر والتي ان هي الا أشبه بالنار تبدأ صغيرة ثم ما تلبث بعد أن تضطرم نيرانها فتصبح كتلة هائلة مخيفة تأكل كل شيء حتى باعثوها ومنشبوها . .

ان هذه الصورة الرائعة والدقيقة للحرب وتحولاتها وأخطارها ، ما كان لها أن تتأتى من خلال قريحة شاعر رومانسي عادي ، لاخبرة له بالحروب ومضارها ، وكيف لا ؟ وزهير قد أربى على الثمانين عاماً وقد شهد وعاصر العديد منها طيلة هذه السنوات المديدة الزاخرة بالأيام والحروب وخاصة حرب داحس والغبراء التي دامت زمناً طويلاً ، ابتلي الكثيرون بويلاتها وحقاق بمدد أكبر الشيء ذاته من الخراب والدمار ، ناهيك عن النفوس التي أزهدت والأموال التي أنفقت والبلايا التي حلت بالقبائل المتقاتلة طيلة هذه الحرب - المجزرة - المدمرة ، والتي كان شاعرنا واحداً من معاصريها وشهودها . فنقل لنا بريشة الرسام المرفه تلك الصور الحسية الرقيقة ، والمشاهد الواقعية الرائعة وعن ذات الموضوع يقول أحيحة بن الجلاح الأوسي .

أعصم لا تجزع فان الحرب ليست بالدعابة

وأبو قيس بن الأسلت يذكر الحرب بقوله :

قالت - ولم تقصد لقيل الغنا مهلاً فقد أبلغت أسماعي
أنكرته حين توسمته والحرب غول ذات أوجاع
من يلحق الحرب يجد طعمها مُراً وتجسسه بجعجاع
في حين يصف جاس بن مرة الحرب (ت ٥٣٤ م) .

تأهب مثل أهبة ذي كِفَاح فان الأمر جلّ عن التلاحي
واني قد جنيت عليك حرباً تَغِصُّ الشيخ بالماء القَراح
مُذَكِّرة متى ما يتصنح منها فتى نشبت بأخر غير صاح
وفي شعر مالك البكري نجد وصفاً للحرب :

يا بؤس للحرب التي وضعت أراهم فاستراحوا
والحرب لا يبقى لها حمها التخيل والمراح
الا الفتى الصبار في النجّـدات والفرس الوقاح

وقيس بن زهير يقول :

وان سبيل الحرب وعزم مضلة وان سبيل السلم آمنة سهل

وفي هذا المجال يقول حاتم بن عبدالله بن سعد بن الحشرج المعروف بالطائي ، الذي اشتهر بجوده حتى قال عنه أبو عبيدة أجواد العرب ثلاثة : كعب بن مامة وحاتم طي وهرم بن سنان صاحب زهير بن أبي سلمى .

واني كأشلاء اللجام ولن ترى أخا الحرب الا ساهم الوجه أغبراً
أخو الحرب ان عضت به الحرب عضها وان شمرت يوماً به الحرب شمراً

لعل في هذه الشواهد ما يكفي للدلالة على معرفة العرب الجاهليين للحرب ومخاطرها، وقد نقلت إلينا هذه الصور من عصور قديمة من خلال الشعر وبه ، فحفظها ونقلها إلينا سالمة وستبقى كذلك لآمد طويلا ما دام الشعر موجوداً تحفظه الدواوين وتتناقله الأجيال بعد الأجيال طيلة مسيرة الحياة .

□ أيام العرب :

عرفت الحروب التي دارت بين القبائل العربية نفسها أو بين بعضها والدول المجاورة كالفرس بالأيام . رغم أن الكثير منها كان يدوم لأكثر من يوم بل وأكثر من أعوام كما هو الحال في حرب البسوس التي دامت قرابة أربعة عقود كاملة من السنين ، وفنيت جرائها أعداد كبيرة من طرفي الصراع ، والتي شملت عدداً من الأيام منها : يوم النهي ، يوم الذنائب يوم واردات ، يوم عنيزة ، يوم القصيبات ، يوم تحلاق اللمم ولقد كانت هذه الأيام مورد أقاصيصهم ، وساحة بطولتهم ، ومسرد حوادثهم ساهم بها زعماء القبائل ، ورؤساء العشائر ، والعديد من القرون الفرسان الذين ذاع صيتهم من خلال أفاعيلهم وبطولاتهم ، التي كانت تتناقلها الركبان ويتفاخر بذكرها وترداد أخبارها أفراد العشائر كبيرهم وصغيرهم ، نسائهم ورجالهم وغير ذلك . وكانت هذه الأيام من الكثرة والعدد لدرجة كبيرة ، فقد جمع أبو عبيدة كتاباً صغيراً حوى خمسة وسبعين يوماً وآخر كبيراً جمع فيه ألفاً ومائتي يوم ، وان أبا الفرج الأصفهاني ألف كتاباً جمع فيه ألفاً وسبعمائة يوم ، هذا في حين جمع محمد أحمد جاد المولى ورفيقه كتاباً أسموه أيام العرب في الجاهلية ، اقتصروا فيه على الأيام المشهورة التي وصل اليهم تفصيل حوادثها وذكر أسبابها ورواية أشعارها وقصائدها ، أما الأيام التي لم يقع في الكتب الا ذكر عناواناتها مجردة من الحوادث وذكر الأسباب فقد جاوزها اختيارنا ، كما يقول المؤلفون في مقدمة الكتابة .

أهمية هذه الأيام تتأتى من كونها واحداً من أهم المصادر عن الحروب والتي وصلت إلينا من خلال الأشعار التي قيلت فيها سواء من حيث الفخر والاعتزاز بانتصارات أحرزتها هذه القبيلة أو تلك ، أو وصف لمجريات وقائعها نقلت إلينا بريشة الرسامين والمصورين البارعين في هاتيك الأيام وهم الشعراء .

كان من أبرز هذه الأيام هو :

- | | |
|--|---------------------------------------|
| ١ - أيام القحطانية فيما بينهم عشرة أيام . | ٥ - أيام ربيعة وتميم خمسة عشر يوماً . |
| ٢ - أيام القحطانيين والعدنانيين تسعة أيام . | ٦ - أيام قيس أحد عشر يوماً . |
| ٣ - أيام العرب والفرس منها يوماً الصفقة وذئ قار . | ٧ - أيام قيس وكندة عشرة أيام . |
| ٤ - أيام ربيعة فيما بينها حرب البسوس والتي اشتملت على ستة أيام . | ٨ - أيام قيس وتميم سبعة أيام . |
| | ٩ - أيام ضبة خمسة أيام . |
| | ١٠ - أيام متفرقة ثلاثة أيام . |

وهذه تشكل كما كبيراً حوى من المعلومات الشيء الكثير عن أماكن وأوقات نشوب هذه الصراعات القبلية المسلحة ، والمشاركين في القتال من كلا الطرفين ، وأبرز الفرسان ونتائج الحروب وأهم الأسلحة المستخدمة في هذه الحروب ، وهي التي تشكل كما لا بأس به من المعلومات المفيدة في مجال التاريخ العسكري . وهكذا من خلال الشعر العربي القديم نقلت إلينا العديد من الصور حيال تلك الحروب ، فكان الشعر سجلاً حفظ لنا وبأمانة تلك القصائد الشعرية الرائعة التي قالها الشعراء سواء كانوا من الفرسان الذين ساهموا وبشكل فعال ، أو قالها شعراء القبائل المشاركة في هذه الحروب .

١ - الشعر وأماكن الحروب :

ان مطالعة العديد من القصائد الشعرية الزاخرة بها دواوين الشعراء نجدها ملأى بالمعلومات المفيدة من الناحية العسكرية والتي يمكننا أن نخلص منها ما يلي :

- أسماء وأماكن الحروب التي جرت بين القبائل . فمن خلال القصائد نجد العديد من الاشارات للأماكن التي كانت تدور فوقها تلك الحروب ومنها تم استخلاص أسماء الحروب والتي عرفت بالأيام أو الغارات والغزوات وغيرها ، ومن ذلك نسوق بعض الشواهد .

فمن يوم الصفقة يقول الأعشى يمدح هودة بن علي الحنفي الذي كان مكلفاً بخفارة غير كسرى أنوشروان التي كان يرسلها لليمن وهي محملة بالنبع ، وقد دارت الحرب بين قبيلة تميم والفرس ودارت الدائرة على تميم وعرف بالصفقة ، لأن كسرى أصفق الباب على بني تميم في حصن المشقر ، ويعرف هذا اليوم أيضاً بيوم المشقر ، وهو حصن بالبحرين ، ففي هذا يقول الأعشى :

سائل تميماً به أيام صفقتهم لما رأهم أسارى كلهم ضرعاً
وسط المشقر في غبراء مظلمة لا يستطيعون بعد الضر منتفعاً

وفي يوم ذي قار، وهو اليوم الذي تمكنت فيه العديد من القبائل العربية المتضامنة المتضافرة من إيقاع أكبر هزيمة تحقيق بالفرس ، وقد جرت أحداث هذا اليوم بعد بعث الرسول العربي الكريم محمد بن عبدالله (ﷺ) وأخبر بها أصحابه حيث قال : اليوم أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم وبني نصرنا . وذو قار ماء لبكر قريب من الكوفة، ويعد هذا اليوم من أكثر أيام العرب فخراً واخترها ذكراً لدى الشعراء الذين تغنوا بالانتصار العربي الذي تحقق ولأول مرة على الطغيان الفارسي الذي كان مسيطرأ على معظم المناطق الشرقية من بلاد العرب والتي تعرف اليوم بالكويت والبحرين وقطر والامارات العربية المتحدة وعمان وحتى اليمن . فقال اعشى قيس مفتخراً بهذا اليوم قصيدة رائعة منها :

لو أن كل معد كان شاركننا في يوم ذي قار ما أخطاهم الشرف
لما آتونا كان الليل يقدمهم مطبق الأرض تغشاها بهم سدف
بطارق وبنو ملك مرأوبة من الأعاجم في أذانها النطف

وفي قصيدة أخرى يمدح نفس الشاعر بني شيبان مشيراً لليوم ذاته :

فصبّحهم بالحنو حنو قراقير وذئ قارها منها الجنود فقلت

وأما المعدل بن الفرّج العجلي فقال :

ما أوقد الناس من نار لمكرمة الا اصطلينا وكنا موقدي النار
وما يعدون من يوم سمعت به للناس أفضل من يوم بذئ قار
جئنا بأسلابهم والغيل عابسة لما استلبنا لكسرى كل أسوار

وقال أبو كلبة التيمي :

لولا فوارس لا ميل ولا عزل من الهازم ما فظتم بذئ قار
ان الفوارس من عجل هم أنفوا من أن يغلوا لكسرى عرصة الدار
لا قوا فوارس من عجل بشكتها ليسوا اذا قلصت حرب بأغمار
قد أحسنت ذهل بن شيبان وما عدلت في يوم ذي قار فرسان ابن سيار



وقد أشاد الكثير من الشعراء بهذا اليوم والنصر الذي أحرزه العرب ممثلين ببعض قبائلهم وأفاضوا في كيل المديح لفرسان العرب وقادة القبائل المشاركة في القتل بل وأكثر من ذلك ، وجه البعض منهم اللوم والتقريع لعدد من القبائل وقادتها الذين لم يشاركوا في صنع هذا النصر العربي الكبير ، والذي لولا قصائد أولئك النفر من الشعراء لما وصلتنا أخبار هذا اليوم ووقائعه وتفاصيل أحداثه .

وخلال تجوالنا عبر صفحات الدواوين الشعرية يمكننا الوقوف على عدد من أسماء الأيام الكثيرة منها : قال ابن الرعلاء الضبابي عن يوم عين أباغ :

كم تركنا بالعين عين أباغ من ملوك وسوقة أكفاء
أمطرتهم سحائب الموت تترى ان في الموت راحة الأشقياء
ليس من مات فاستراح بميت انما الميت ميت الأحياء

وعين أباغ واد وراء الأنبار على طريق الفرات الى الشام وكان هذا اليوم للحارث الأعرج بن جبلة ملك العرب بالشام (ت ٥٥٦ م) على المنذر بن ماء السماء ملك العرب بالحيرة والذي يعرف بالمنذر الثالث بن امرئ القيس ، وماء السماء اسم أمه وهو من أشهر ملوك الحيرة وأكثرهم غزواً وفتحاً . وقال عمرو بن حوط بن سلمى بن هرمى بن رباح عن يوم طخفة ، وهو لبني يربوع من تميم على المنذر بن ماء السماء وهو موضع في طريق البصرة الى مكة ، حيث يقول :

قسطننا يوم طخفة غير شك على قابوس اذ كره الصباح

ونجد لدى الأعشى اشارة ليوم أواردة جبل لبني تميم ، وهو للمنذر بن ماء السماء على قبيلة بكر ، حيث يقول :

ومنا الذي أعطاه بالجمع ربه على فاقة وللملوك هباتها
سبايا بني شيبان يوم أواردة على النار اذ تجلى به فتیانها

وغير ذلك كثير ، وهي أكثر من أن يطالها حصر في دراسة كهذه ، تروم تسليط الأضواء على بعض الجوانب الدالة على الدور الذي أسهم به الشعر العربي من حيث التأريخ العسكري للحروب ، اذ من النادر أن نجد شاعراً أو ديواناً شعرياً لأي من شعراء العرب الجاهليين يكاد يخلو في مجمله أو في قصائده من ذكر لأيام العرب ، سواء شارك بها هذا الشاعر أو عاصرها ، أو شاركت به قبيلته .

ب - نتائج الحروب :

لم يكتف الشعراء بإيراد أيام وأسماء الحروب التي دارت بين القبائل العربية في العصر الجاهلي وإنما كانوا يتطرقون أيضاً للحديث عن نتائج هذه الحروب ، والاشادة بالانتصارات التي تحرزها هذه القبيلة أو تلك ، وأحياناً ومن خلال نفس القصائد نجد العديد من الأبيات الشعرية التي يحاول الشعراء فيها الاستهزاء بخصومهم أو ترداد وذكر بعض العيوب وخاصة هزيمتهم أو فرارهم من المعارك ، أو اتخاذ موقف متخاذل إزاء بعض الحروب ، والشواهد في الشعر العربي القديم كثيرة ، نقدم بعضاً منها ، للدلالة على مدى الاسهام الذي قام به الشعر والشعراء في التدوين والتأريخ العسكري للعرب قبل الاسلام ، بشكل غير مباشر ، لأنهم عندما نظموا تلك القصائد لم يكن يدور في خلداهم أنهم يؤرخون لمعركة أو واقعة معينة ، بل كانت القصائد تنظم أو تقال وفقاً لهذه المناسبة أو تلك ومدى تأثيرها في أعماق الشاعر ومن ثم افلات عفاريت الشعر من عقالها حيث تخرج تلك القصائد ، وفي هذا السياق نجد بعضاً من المؤشرات والشواهد المفيدة ، منها قول قيس بن زهير عندما وقف على جثة حذيفة بن بدر قتيل داحس والغبراء :

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
شفيت بقتاهم لغليل صلدري ولكني قطعت بهم بناني
فلا كانت الغبرا ولا كان داحس ولا كان ذاك اليوم يوم دهاني

وقيس هو سيد بني عيس وكان يلقب بقيس الرأي لجودة رأيه وكان أيضاً مجرباً ، من أقواله « ان مع الثروة والنعمة التحاسد والتباغض والتخاذل ، وان مع القلة التعاضد والتوازر والتناصر » وله أيضاً : « أربعة لا يطاقون : عبد ملك ، ونذل شبع ، وأمة ورثت ، وقبيحة تزوجت » .

أما عروة بن الورد فيذكر فرار الحكم بن الطفيل في نفر من أصحابه حتى قطع العطش أعناقهم فماتوا ، في حين وضع الحكم جبلاً في عنقه وتدلّى من إحدى الأشجار فاختنق مخافة أن يقع في الأسر ، وكان ذلك في يوم الرقم الذي جرت وقائعه فيما بين غطفان وبني عامر ، والرقم جبال دون مكة بديار غطفان وفي هذا يقول عروة :

ونحن صبّحنا عامراً في ديارها علالة أرماح وضرباً مذكرا
بكل رقاق الشفرتين مهند ولدن من الغطي قد طرّ أسمرا
عجبت لهم اذ يخنقون نفوسهم ومقتلهم تحت الوغى كان أجلرا

وهنا نجد نوعاً من التهكم والسخرية اللذين يبديهما الشاعر حيال الهاربين ، يصل في النهاية الى القول أنه كان أجدر وأفضل لهم أن يموتوا ميتة الأبطال بين طعن القنا وخفق

البنود ، بدلا من أن يموتوا خنقا مخافة الأسر . أما خدش بن زهير فيقول عن يوم العباء
وهو ذلك اليوم الذي كان لصالح قيس على كنانة وقريش ، والعباء علم على صخرة
بيضاء الى جانب عكاظ :

ألم يبلغك بالعباء أننا ضربنا خندفا حتى استفادوا
بنني بالمنازل عز قيس وودوا لو تسبخ بنا البلاد
ويقول :

ألم يبلغك ما قالت قريش وحتى بني كنانة اذ أثروا
وهمناهم بأرعن مكفهر فظل لنا بعقونهم ذئير
نقوم مارن الخطي فيهم يجيء على أسنتنا الخريز

لعل خير ما ننهي به هذا الجانب عن الدور الهام للشعر العربي في تاريخ وتدوين
الحروب والوقائع ، أن نذكر بعضاً من أبيات أعشى قيس التي قالها مفتخراً بيوم ذي قار
ونتيجة المشرقة للعرب كافة ، فهو يقول :

وجند كسرى غداة الحنو صبحهم منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا
لقوا مللمة شهباء يقدمها للموت لا عاجز فيها ولا خرف
فيها فوارس محمود لقاءهم مثل الأسنة لا ميل ولا كشف
بيض الوجوه غداة الروع تحسبهم جنان عين عليها البيض والزعف
لما رأونا كشفنا عن جماجمنا ليعلموا أننا بكر فينصرفوا
قالوا : البقية والهندي يحصدهم ولا بقية الا السيف فانكشفوا
لو أن كل معد كان شاركننا في يوم ذي ما أخطاهم الشرف

★ ★ ★